أدب العروبة فى الميزان

للأستاذ على متولى صلاح

— ٣ —

ليست علاقة الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظة باشا بالأدب قريبة ولا واهية وإنما هى علاقة قديمة وثيقة انحدرت إليه من آبائه وأجداده الذين كانوا يحتفون بالأدب ويحتشدون لأهله ويبذلون لهم الكرمات والروءات بذل السماح . ولعل من أطرف ما يروى فى هذا الصدد خبر الغرفة التى أقامها الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظة باشا فى بيته بقرية « غزالة » لحافظ إبراهيم يلم بها بين الحين والحين فيجد العيش اللين ، والرزق الوفير ، والحياة الرتيبة ، والتى أطلق عليها اسم « غرفة حافظ » وجعلها حراماً على سواه ، مغلقة إلى الآن لا يغشاها إنسان ؟

ويسأل بعض القراء ما زال يذكر المقالات الطويلة الضافية التى كان يدبجها معالى الأستاذ فى جريدة « السياسة الأسبوعية » فى صدر حياتها وفى « السياسة اليومية » منشأتها بقلم يشهد له بالبلاغة والبيان ، وأنا أعلم أن شوقى قد عنى إليه جاهداً بكل رواية من رواياته الأخيرة ويأبى إلا أن يهدى إليه أول نسخة تخرجها المطبعة ! ولعل الكثير من القراء لا يعرف أنه شاعر تلين له القوافى لأنه لم يجتمع له ديوان شعر ، ولأن أغلب شعره إما أن يكون معارضة لطيفة ، أو نكتة أو جواباً عن سؤال ، أو تزجية بشرى ، أو إرسال تهنئة ، فى ذلك من مختصر القول ومقتضب الكلام ، وأنا أسوق إلى القراء نموذجاً واحداً منه يدلهم على مبلغ أصالته فى الشعر وعراقته فى التهنئة صديقنا الشاعر طاهر أبو فاشا على زواجه منذ قريبة فى قصيدة طويلة منها :

بنيت بالأمس صرحاً شامخاً وبخلا وغدراً
هلا دعوت ضيوفاً لا يسألونك كثرا
غر ميامين جاءوا دمياط براً وبحراً(١)
إن شئت قدمت قولا جرى بدمياط ذكرا
« التابعى » (٢) طهاه فكان فى الصحن تبراً !

إلى أن قال فى ختامها : —

دفعت بالله مهراً أم كان شعرك مهراً ؟
أعطاك ربك ألفاً من البنين وعشراً
وصاغ منك ومنها ضمون : شمساً وبدراً

فكان أمراً طبيعياً أن ينعقد له لواء رياسة جماعة أدبية كل وكدها خدمة الأدب والأدباء « وبعث مجد الضاد وآدابها » كما يقول ، « وإحياء التراث الإسلامى والمفاخر العربية » كما يقول سكرتير الجماعة .

والتأمل فى منهاج هذه الجماعة وهو منهاج حافل حاشد كما صوره رئيسها وبعض رجالها يجد أن الجامعة لم تحقق أو لم تكد تحقق منه شيئاً ! فمن منهاجها « أن تحيى التراث الإسلامى » وهى لم تصنع فى ذلك شيئاً .

ومن منهاجها « تزويد المكتبة العربية بزاد متصل من الآراء الحرة الكريمة » وهى لم تزود المكتبة العربية بعد إلا بكتابها هذا الذى نحن بصدد الحديث عنه .

ومن منهاجها « النهوض بالفكر الإسلامى والبيان العربى » — وهى لم تنهض بشىء من ذلك إلا طيفاً لا يكاد يرى !

ومن منهاجها « تقوية الصلات الفكرية والروحية والثقافية بين مصر والبلاد العربية » وهى لم تصنع فى هذا الصدد شيئاً أصلا..

ومن منهاجها « أن تشعل فى الشعب روح النضال والانتصار وأن توحد له الأهداف والأغراض وأن تفسح له آفاق الحياة وأحلام المجد » ونحن نعرف أن ذلك لا يكون إلا بالأناشيد التى تبعث فى الشعب الحياة والطموح والعزة ، وبالروايات التى تعيد إليه سابق مجده ، وماضى تاريخه ، وتستنفره للجهاد فى سبيل استرجاعه وإعادته ، وبقصص البطولة والتضحية — والتاريخ المصرى ملىء بحوادثهما — تذكى فيه العزائم الواهية ، وتحيى منه موات الهمم . وماذا جامعة أدباء العروبة فعلت من ذلك شيئاً

ولكن عذيرها فى ذلك أنها لم يكد ينقضى على إنشائها إلا عام وهو — عندنا — عذر يشفع لها بذلك ، ولكننا ننبهها إلى ما أخذت به نفسها ، وما عاهدت الله والناس عليه وإنا لمنتظرون

على أننا نريد على أن نضيف إلى منهاجها هذا أموراً هى حسبة أن تحملها الصدر من منهاجها إن هى كانت جادة فى السعى لرفع

(١) كان معالى يومئذ يصطاف برأس البر ..
(٢) بائع فول شهير بدمياط

شأن الأدب والأدباء ، فعليها أن تعين رقيق الحال من الأدباء وتمدهم بما يمكّنهم من طبع نتاجهم ونشره بين الناس ، وعليها أن تحيي الكنوز الدارسة من كتب الأدب العربي القديم وتعنى بتصحيحها وتنقيحها وإخراجها في ثوب قشيب فذلك أجدى عليها وعلى الأدب من ألف مهرجان ومهرجان . وعليها أن تعمد إلى أمهات الكتب الأجنبية — وبخاصة القصص الرفيعة — فتترجمها إلى اللغة العربية فتزيدها ثروة وذخيرة . وعليها أن تسعى جاهدة لدى الحكومة لتقرّر ما ينتجه كرام الأدباء في مكتباتها وفي مدارسها فينتفع الأدباء وينفعون ، أما أن يكون كل عملها الطواف هنا وهناك وإلقاء كلمات مبتسرة ينشئها بعض أصحابها وهم في القطار ثم تجمع ذلك في كتاب تذيعه على الناس دليلا على وجودها وسجلا لمجهودها فذلك عمل ضحل قليل الغناء ... وكتاب « أدب العروبة » الذي نحن بصدد الحديث عنه كله — إلا القليل — من عمل أعضاء جامعة « أدباء العروبة » والمتأمل فيهم لا يجد بينهم واحداً من شيوخ الأدب وسدنته القدامى ، وكلهم لم يجاوز بعدُ مرحلة الشباب إلا الصديق الدكتور إبراهيم ناجي والصديق الأستاذ محمد مصطفى حلم فقد أوشكا أن يُجاوزاها !

ويتألف الكتاب من الكلمات والقصائد التي أُلقيت في سبعة مهرجانات أقامتها الجامعة في القاهرة وبعض المدن لمناسبات متفرقة أو للتنويه بشأنها والتذكير بوجودها ، ويفتتح الأستاذ الرئيس كل مهرجان بكلمة منه مختصرة تشرح أغراض الجامعة وتنبه إلى رسالتها وأهدافها ، وتمهد القول لمن يلونه من الخطباء والشعراء ... ويجد القارىء في الكتاب للأستاذ الدكتور محمد وصفي نائب الرئيس سبع كلمات لكل مهرجان كلمة ، وفي كلام الرجل لازمة خاصة يتميز بها ، فهو يجنح جنوحاً قوياً شديداً تدفعه إليه طبيعته الخاصة حتى لا يملك عنه منصرفاً إلى الاستشهاد الدائم بالقرآن الكريم وبالحديث الشريف ، وهذا حسن في ذاته ولكنه هو كل ما يصنع ! فهو يعمد إلى الآيات الكريمة التي تتصل بسبب قوي أو ضعيف إلى المناسبة القائمة ، ويجدّ في البحث والتنقيب عنها ، ثم يشرح معانيها التي احتوت عليها جميعاً ويسوقها معنىً معنىً حتى إذا استوفاها جميعاً ذكر نص الآية حتى ليخيل للقارىء أنه أتى بالآية استشهاداً لما قدّم من المعاني ومطابقة له والحقيقة أنه اهتدى إلى الآيات أولا وأعدها للقول وأخذ في تفسيرها مقدماً حتى إذا أتمّه جاء بالنص !

ولو أننا أخرجنا من كلامه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ما بقي بعد ذلك شيء ؟ فليس له وراء ذلك إنشاء أو ابتداع أو كتابة فهو إلى المفسرين أقرب منه إلى الأدباء ..

ومما يعجب أن يقول الأستاذ طه عبد الباقي سرور سكرتير الجامعة في الكتاب معانى كلمات ليست بالقصيرة ثم إنك لا تكاد تجد بينها فرقاً يحس أو اختلافاً يشعر به ، فالكلمات متشابهة متماثلة حتى لو أنك وضعت أي واحدة منها تحت أي عنوان منها ما أحسست نبواً ولا قلقاً ولا انحرافاً ! وكلامه — في عمومه — كلام عام لا خاصة له وأكاد أقول لا معنى له ، فهو يسوق الكلام يجر بعضه بعضاً دون حساب ولا تمهل ولا أناة فيقول فيما أسماه « فلسفة الربيع » « والربيع عصر المودة والسلام والإخاء إذا انطبعت روح الإنسان بتلك المعاني . وعهد حروب ودمار وخصومة وبغضاء إذا ثار في الإنسان جانب من جوانب الإلتواء » فأي كلام هذا ؟ وأي شيء فيه يجده القارىء ؟ وما علاقته بفلسفة الربيع هذه ؟؟ وهو يقول كذلك إن الإنسان « إن شاء أحال الوجود نعيما وهناء وسلاماً وإن أراد كان الوجود جحيما ورعداً وحرباً » وذلك كلام معاد قريب أين هو من الربيع وفلسفته ؟ وهو يقول مخاطباً القمر معدداً محاسنه « قد تمنى اسمك بنات حواء » وذلك إلى كلام العامة أقرب ، ويقول عنه إنه « يمين أقسم به الديّان » ونسي أن الديان أقسم أيضاً بالتين والزيتون ؟ ولكنه السجع الذي يريد التزامه فتنهر أنفاسه وتخرج سجعاته قلقة نابية غير مستقرة .

وكلمات الأستاذ ملأى بالأخطاء اللغوية التي كنا نود لو تنزّه عنها سكرتير جامعة أدبية تريد لها النهوض والسير الحثيث والتقدم المطرد ، فهو يقول مقدماً الكتاب « هذا بعض تراثنا في عام » والتراث ليس نتاج الأحياء إنما هو ما خلف الأموات . ويقول عن الإنسان أن فيه معجزة كبرى « أودعها الله في روحه » والصواب أن يقول « أودعها الله روحه » . ويقول عن مهرجان القمر إنه « مهرجان النور والضياء ! والله يقول « وجعلنا الشمس ضياء والقمر نوراً » . ويقول مخاطباً الإنسان « فانعم